

أو رعية أعدائنا سوء، وإنما الحرب بيننا وبينهم تنافس في قوة الإرادة، وتسابق إلى الصبر على المكروه، فأينا ثبت حتى يستسلم خصمه فهو المنتصر، وأينا سئم قبل أن يسأم عدوه فهو المهزوم، وما على الرعية إلا أن تشهد هذا الصراع الذي تجري أحداثه بين سادتها وقادتها، لتعجب بهم إن شاءت، فقد يكون من بينهم من هو خليق بالإعجاب، ولتسخر منهم إن أحببت، فقد يكون من بينهم من هو جدير بالسخرية، ولكن لتأمن على أنفسها ودمائها وأموالها ومرافقها على كل حال.»

قال الملك: «مرحى يا ابنتي! ما أحسن وقّع ما تقولين في نفسي! وما أحبه إلى قلبي! وما أدناه إلى المثل الأعلى الذي طالما أمَلْتُه وسموتُ إليه دون أن أبلغه! أيمكن يا ابنتي أن تبلغيه؟! أيمكن أن تبلغيه وأنا حاضر أشهد فوز الخير على الشر وانتصار الرحمة على القسوة؟»

قالت فاتنة: «فإنك تشهد هذا كله يا أبت. لن ينالنا أعداؤنا بما نكره، ولن ننال أعداءنا بما يكرهون، ولكنهم سيفنون قوتهم في غير طائل، وسيكسرون حدتهم في غير غناء، وسيضيعون ما ادخروا من عُدة وما هيئوا للحرب من أداة دون أن يحصلوا من وراء ذلك شيئاً، وسيفقدون سمعتهم فيما بينهم، وسيفقدون سلطانهم على رعاياهم، وسينقلب بعضهم لبعض عدوًّا، وسيصبح بأسهم بينهم شديداً.»

قال أحد القواد: «ونحن أيتها الأميرة ماذا نصنع؟ وما حاجة الدولة إلينا منذ اليوم؟ وما قيمة جيوش لا تخوض غمار الحرب ولا ترد عدوان المعتدي ولا تدفع غارة المغير؟» قالت فاتنة: «فإن الجيوش وسيلة لاتقاء الحرب لا لابتغائها، وأداة لدفع الشر لا لاجتلابه. أفإن جَنَّبْتُمُ الحرب وضمنتُ لكم السلم والعافية تضجُّون وتعجُّون؟! من شاء منكم أن يغامر فليغامر بنفسه لا بالأبرياء من جنده. أفضمنتم أن يُقبل جنودكم على الحرب محبين لها راغبين فيها! أَلستم تعلمون فيما بينكم وبين أنفسكم أن كل واحد منهم يُؤثر أن يفرغ لحياته وعمله وأهله، وأن يأخذ نصيبه من الدنيا دون أن يُعجله عنه هذا الموت الذي تقضونه عليه لا لشيء إلا لهذه المغامرة التي تجري مع دمائكم وتدفعكم إلى هذه الأهوال التي تحبونها لأنكم بمأمن من آثارها؟!»

قال القواد: «فهل نفهم من ذلك أن الأميرة تعفينا من أعبائنا، وتردنا إلى حياتنا الخاصة، وتُسرح الجيوش، وتُفرَّق الجند؟»

قالت فاتنة: «لا تفهموا من هذا شيئاً، فلا أملك أن أعفي منكم أحداً، ولا أشير على الملك بأن يعفي منكم أحداً، ولا بأن يسر الجيش ولا بأن يفرق الجند؛ فالحرب محتملة